مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: أثر الثقافة الشعبية في شعر مسلم بن الوليد
اسم الكاتب: د. علي الكلش
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/3006
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 02:05 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

أثر الثَّقافة الشَّعبيَّة في شعر مسلم بن الوليد

د. علي الكلش[1]

1 مدرس في قسم اللغة العربية كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة الفرات.

الملخَّص:

في هذا المقال محاولة لرصد دخول الأمثال وما جرى مجراها من أفكار وأحداث تندرج ضمن الثَّقافة الشَّعبيَّة؛ في نسيج النُّصوص الشِّعريَّة للشَّاعر العبَّاسي مسلم بن الوليد. وتأتي أهميَّة هذا البحث من كونه محاولة لقراءة النصِّ القديم بآليَّة تعدُّ رافدًا يصبُّ في تيَّار النَّقد اللِّساني الحديث الَّذي يحاول كسر الحواجز بين اللُّغة والأدب: وهي مصادر المعاني أو ما بات يُعرف في النَّقد الحديث بآليَّة التَّناص، وذلك لكون البحث يولي الجانب التَّطبيقيَّ عناية كبرى، ويسعى إلى الإفادة من المعطيات المختلفة في سبيل الوصول إلى الدِّلالة الحقيقيَّة للنُّصوص الشِّعريَّة.

الكلمات المفتاحية: مسلم بن الوليد، مصادر المعاني الشَّعبيَّة، الأمثال.

تاريخ الايداع: 2022/1/5
تاريخ القبول: 2023/3/2

حقوق النشر: جامعة دمشق – سورية، يحتفظ المؤلفون بحقوق النشر بموجب الترخيص
CC BY-NC-SA 04

The impact of popular culture on the poetry of Muslim binAl-Walid

Dr. Ali Al-Kalash[2]

2 Lecturer in the Department of Arabic Language, Faculty of Arts and Humanities, Al-Furat University.

Abstract:

In this article, an attempt is made to monitor the introduction of proverbs and the popular ideas and events that took place in their course. In the fabric of the poetic texts of the Abbasid poet Muslim bin Al-Walid. The importance of this research comes from the fact that it is an attempt to read the ancient text with a mechanism that is considered a tributary that flows into the stream of modern linguistic criticism that tries to break the barriers between language and literature: which are the sources of meanings or what has become known in modern criticism as the mechanism of intertextuality, through the fact that the research pays great attention to the applied side. And tries to benefit from the various data in order to reach the true significance of the texts.

Received: 5/1/2022
Accepted: 2/3/2023

Keywords: Muslim ibn al-Walid, Popular sources of meanings, Proverbs.

Copyright: Damascus University- Syria, The authors retain the copyright under a CC BY- NC-SA

المقدمة:

لا يمكن أن تغيب النُّصوص والأفكار الشعبيَّة عن ذهن المبدع، بما تحويه من أبعاد فكريَّة وثقافيَّة تغني تجربته الشعريَّة، وبما لها في ذهن المتلقِّي من رصيد اجتماعيٍّ، يستثير ذاكرته ويغنيها بتجربة جماليَّة جديدة، يسهل حفظها، ويأتي على رأسها في هذا المجال "الأمثال". وفي الكلام على أهمِّيَّتها ينقل ابن رشيق عن بعضهم قوله: "في المثل ثلاث خلال: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه[1]". وحاول ابن رشيق أن يبيّن أسباب الإتيان بالأمثال في الشعر، فقال: "والمثل إنَّما وزن في الشِّعر ليكون أشرد له، وأخفَّ للنطق به، فمتى لم يتَّزن كان الإتيان به قريبًا من تركه... [2]". غير أنَّ ابن رشيق لا ينسى أن يحذِّر من الإفراط في نظم الأمثال في الشِّعر، فكأنَّه خشي أن تخرج به عن طبيعته، فقال: "وهذه الأشياء في الشعر إنَّما هي نبذ تُستحسن، ونكت تُستظرف، مع القلَّة، وفي الندرة، فأمَّا إذا كثرت فهي دالَّة على الكلفة، فلا يجب للشعر أن يكون مثلًا كلُّه وحكمة كشعر صالح بن عبد القدُّوس؛ فقد قعد به عن أصحابه وهو يقدمهم في الصناعة لإكثاره من ذلك...[3]". فالإسراف في طلب هذا الباب يعدُّ من عيوب الشِّعر، فقد كان لوجود الأمثال في بنية الشِّعر غايات محدَّدة عندهم، فكانوا يرون أنَّ "ضَربَ المَثلِ يُوضِّحُ المُنبَهمَ، ويَفتحُ المُنغلِقَ، وبِهِ يُصوَّرُ المعنى في الذِّهنِ، ويُكشَفُ المُعمَّى عندَ اللَّبسِ، وبِهِ يَقعُ الأمرُ في النَّفسِ حُسنَ مَوقعٍ، وتَقبلُهُ فَضلَ قَبولٍ، وتَطمئِنُّ بِهِ اطمئنانًا، وبِهِ يَقعُ إقناعُ الخَصمِ وقَطعُ تَشَوُّفِ المُعترَضِ[4]". أمَّا إذا جاوز ضرب الأمثال في الشِّعر هذه الأغراض فإنَّه واقع في مهاوي الذَّمِّ، لاحق بأبواب التَّقصير في الشِّعريَّة.

ويمكن أن يضاف إلى الأمثال أو ما جرى مجراها في مجال المصادر الشعبيَّة ما يمكن تسميته تجاوزًا "بالعقائد" التي ظلَّت راسبة في ذاكرة المبدع والمتلقِّي على السَّواء، وكان لها حضور في نصوص مسلم بن الوليد، كالطِّيرة، والزَّجر والسَّانح والبارح، وغير ذلك. وهذا من الاستخدام الشَّعبيِّ المهمِّ في الشِّعر العربيِّ، الَّذي ينبغي للدَّارس الوقوف عليه، وهو يحتاج إلى ثقافة غير مقتصرة على الأدب الرَّسميِّ المكتوب، بل لا بدَّ أن يتعدَّاه إلى المعارف الشَّفويَّة في مجتمع الشَّاعر، لأنَّ دراسة هذه الاستخدامات الثَّقافيَّة الخفيَّة في الأدب تظهر طبقات معرفيَّة لدى الشَّاعر وعصره، وتكشف معارف أو أنساقًا ثقافيَّة غير متداولة كثيرًا على الرغم من أهمِّيَّتها في الوصول إلى دلالات النُّصوص، وفي عيار الشِّعر لابن طباطبا إشارات مهمَّة إلى هذا الجانب تؤكِّد ما تقدَّم؛ إذ ذكر من أدوات الشِّعر: "الرِّواية لفنونِ الآدابِ، والمعرفة بأيَّام النَّاس وأنسابِهم ومناقِبهم ومثالبِهِم، والوقوف على مذاهب العرب... وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها وأمثالها، والسَّننِ المستعملة منها، وتعريضِها وتصريحِها[5]"، فلا يمكن نظم الشِّعر من غير هذه الأدوات، وهي من ثمَّ أدوات لازمة لفهمه، وليس لنظمه فحسب.

مصادر المعاني الشَّعبيَّة في شعر مسلم:

لعلَّ أبرز ما دخل في بناء شعر مسلم بن الوليد من الثَّقافة الشَّعبيَّة هو الأمثال، ولم تكن تلك الأمثال تأتي في شعره دائمًا على حالها لفظًا ومعنى، بل يلحظ القارئ أنَّه تعامل معها بطرق شتَّى، مُضفيًا عليها ما يلائم الموقف الشِّعريَّ الَّذي يريد التَّعبير عنه، ومتصرِّفًا بها في كلِّ مرَّة ترد في شعره، على حال يتفاعل فيها المثل مع هذا الشِّعر في وصف طبائع الناس وأخلاقهم، مدحًا أو رثاءً أو هجاءً، أو في الغزل، أو في تصوير أحوال الدُّنيا ووصف تجاربه فيها. وقد يتلاقى أكثر من مثل واحد، فتتعاضد في تكوين النَّصِّ الشِّعريِّ لمسلم، أو يتفاعل هذا المثل أو ذاك مع مصادر أخرى، ويتضافر معها على تشكيل نصِّ مسلم.

---

1 العمدة، ج1، ص280.

2 المصدر نفسه، ج1، ص282.

3 المصدر نفسه، ج1، ص285.

4 زهر الأكم في الأمثال والحكم: ج1، ص31.

5 عيار الشِّعر، ص6.

ولمَّا كان أكثر شعر مسلم في المدح، فإنَّ شعره المدحيَّ غنيٌّ بالتَّشابك مع النصوص والأفكار الشعبيَّة، ولعلَّ في ذلك رغبة منه في أن تنفق سلعته عند الممدوح من جهة، وفي انتشار شعره بين الناس من جهة أخرى. يقول مسلم في الثناء على رجل عاش أولياؤه في رخاء من ندى يديه، وقضى بهذا النَّدى على أحقاد الحاسدين، إذ استطاع أن يستلَّ أضغانهم وسخائم أنفسهم[1]: (من البسيط).

يبرُّ بالجودِ يحميهِ ويكلَؤُهُ كأَنَّهُ والدٌ يَحنُو على ولدِ
أَغنى الصَّديقَ فَعاشُوا منهُ في رغد وَاسْتَلَّ جودُ يديهِ غِلَّ ذي الحسَدِ

إنَّ هذا الممدوح يحفظ خصلة الكرم، ويصونها ويرعاها بعطف وحنان يكاد يشبه حنان الوالد على ولده، وقد استقى الشَّاعر هذه الصورة فيما يبدو من المثل القائل[2]: "أَحنَى مِن الوَالِدِ على الولدِ". فليس ثمَّة ما يفوق حنان الأب تجاه أبنائه، فلا غرابة أن يكون مضرب مثل عند العرب.

وأثنى مسلم على أحد ممدوحيه، فذكر أنَّ هذا الممدوح يعطي قاصديه فيغنيهم، فإذا أنفقوا ما أخذوه منه وذهب مالهم عاد إليهم بالعطاء فأغناهم مرَّة ثانيةً، بَيْدَ أنَّه لا يكدِّر عطاءه بالمنّ، فهو يعاود العطاء في كلِّ مرَّة من غير أن يُفسد هذا العطاء بالتَّنغيص[3]: (من الطويل).

وَعندَ أبي يحيى غنًى لا يمُنُّهُ وَعَودٌ متى ما يُدبِرِ المالُ يُقبلِ

وممَّا جاء في اللغة فيما له صلة بتفسير هذا البيت: مَنَّ فلانٌ على فلان إذا أعظم الإحسان، وفخر به وأبدأ فيه وأعاد، حتَّى يفسده ويبغِّضه، ومنَّ فلانٌ على فلان إذا أثقله بنعمه الثَّقيلة، والمنُّ بالقول مستقبح فيما بين النَّاس إلَّا عند كفران النِّعمة، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كُفِرتِ النِّعمة حَسُنَتِ المِنَّةُ[4].

وفي الوقوف على هذه الفكرة يتبيَّن أنَّ لها رصيدًا شعبيًّا وأدبيًّا كبيرًا في المجتمع العربيّ، ولا غرابة في ذلك فهو مجتمع قبليٌّ كان في أكثره قائمًا على التَّرحال بحثًا عن مقوِّمات المعيشة، ولهذا كثرت في حمد صاحب هذه الخصلة وذمّ مخالفها الحِكم والأمثال، فقد قالوا في الحثِّ على عمل المعروف ونسيانه[5]: "إِذَا اتَّخذتُم عِندَ رَجلٍ يَدًا فَانسَوهَا". وقالوا في الحثِّ على عدم تكدير العطاء بالامتنان[6]: "المِنَّةُ تهدمُ الصَّنيعةَ". وهو مثلٌ يُضرب لمن يبتدئ بالإحسان ثمَّ يعود عليه بالإفساد.

أمَّا في الشَّطر الثاني من البيت السَّابق فيصوِّر مسلمٌ ممدوحَه يعيد العطاء على قاصديه إذا أتلفوا عطاءه السَّابق، وهو يحيل في هذا المعنى إلى المثل المشهور الَّذي يقول[7]: "العَوْدُ أَحْمَدُ"، وهم يعنون بهذا المثل أنَّه إذا ابتدأ الرَّجل العُرْفَ جَلب الحمدَ إلى نفسه، فإذا عاد إلى المعروف كان أحمدَ له، أي أكسب للحمد له. ويجوز أن يعني أنَّ الابتداء محمود، والعود أحقُّ بأن يحمد منه، كما جاء في شرح هذا المثل[8]، وقد اختزل الشَّاعر كلَّ هذه الدِّلالات ووظَّفها في هذا البيت.

ويقول مسلم متحدِّثًا عن همَّة ممدوحه العالية الَّتي تجعل منه رجلًا عالمًا بالفيافي والقفار عارفًا بمجاهلها لكثرة ما قطع منها متنقِّلًا، مدركًا أنَّ عزيمة رجل مثله لا يمكن أن يطير لها طائر نحس، أي لا ينبغي لها أن تخيب[9]: (من الطويل).

أخُو العَزمِ لا يَبني على الهُونِ بيتَهُ عَروفُ السُّرى في كُلِّ بيداءَ مَجهَلِ
إذا شاءَ قادتْهُ إلى حَمدِ ماجِدٍ عزائمُ لم تُزجَرْ بطائِرِ أخيَلِ

1 شرح ديوان صريع الغواني مسلم بن الوليد الأنصاري: ص86.
2 جمهرة الأمثال: ج1، ص84.
3 شرح ديوان صريع الغواني، ص28.
4 انظر: لسان العرب: مادة: منن.
5 مجمع الأمثال: ج1، ص29.
6 مجمع الأمثال للميداني، ج2، ص287.
7 المصدر نفسه، ج2، ص34.
8 انظر المصدر نفسه، ج2، ص34.
9 شرح ديوان صريع الغواني، ص27.

إنَّ لدى هذا الشَّاعر عزمًا لا يثنيه زجر الزاجرين، وإن تطيَّروا له بالنَّحس والشُّؤم، أو توقَّعوا له سوء الطَّالع، وهذه العزيمة الماضية هي الَّتي تحمله على ألَّا يقبل بالهوان، ولا يبني بيته عليه، وتدعوه إلى الارتحال إلى هذا الممدوح الماجد، متى شاء بلا تردُّد ولا تلكُّؤٍ.

إنَّ كثيرًا من الاعتقادات أو ما يتمُّ تداوله على أنَّه خرافة بات في القراءة النَّقديَّة مأخذًا يُبنى عليه، ويُدرس بوصفه نسقًا ثقافيًا؛ فالشَّاعر في الشَّاهد السَّابق يحيل إلى شيء ممَّا كانوا يعتقدونه، وهو الزجر بطائر الأخيل الذي كانوا يتشاءمون به، جاء عن هذا الطائر في أساس البلاغة: "الأَخيلُ، هُو طَائرٌ أخضرُ لا ينجحرُ وقتَ الهجيرِ، كَما يفعلُ سائرُ الطُّيورِ[1]". ويقول ابن رشيق في العمدة: "ويتطيَّرون بالصُّرَدِ، ومِن أسمائِهِ الأخيلُ، والأخطبُ، ويقال: الأخيلُ الشقراقُ، ويقال: بل طائرٌ يشبهُهُ[2]".

ولهذا الطائر حضور واضح في أمثال العرب، وأقوالهم الشعبيَّة، من حيث إنَّ هذا الطَّائر كان في اعتقاد بعضهم مضرب المثل في الشُّؤم، فمن ذلك قولهم: "أَشْأَمُ مِن الأَخيلِ[3]"، وجاء في تفسير الميداني لهذا المثل أنَّ الأخيلَ هو الشِّقِرَّاق، وذكر أنَّه لا يقع على ظهر بعير دَبِر إلَّا خَزَل ظهره... وإذا لقي الأخيلَ منهم مسافرٌ تطيَّر، وأيقن بالعقر في الظَّهر، إن لم يكن موت[4].

وقد أورد صاحب مجمع الأمثال هذا المثل بصيغة أخرى، هي قولهم[5]: "لاقَيْتُ أَخيَلَا" وفي شرحه قال: "ويقال: إذا وَقَعَ على بعير، وإن كان سالمًا، يئسوا منه، وإذا لقيَ المسافرُ الأخيلَ تطيَّر، وأيقنَ بالعقرِ[6]".

ويمدح مسلم بن الوليد في إحدى قصائده محمَّد بن منصور بن زياد، متَّكئًا على الأمثال والمعتقدات الشَّعبيَّة في تصوير فروسيَّته، فيقول[7]: (من الكامل).

يقضي على مُهَجِ النفوس وإنْ نَأتْ بصَريمةٍ من عزمِ رأيٍ مُحصَدِ
جَنَبَ الجيادَ من العراقِ شَوازبًا يَقرعْنَ هاماتِ الصَّفا بالجَلمَدِ

يصف الشَّاعر هذا الرَّجل بأنَّه مُحصَد الرَّأي، أي صاحب رأي مُحكَمٍ، وتفكير سديد، ويتَّكئ هنا على التَّشبيه بالحبل المفتول بإحكام[8]، ويصوِّر أنَّ هذا الممدوح قاد الخيل المضمَّرات، التي اعتادت قرع هامات الصَّفا، وقرع الصفاة مثل يُضرب في التَّعرُّض للأمور الجسيمة[9]، وقد وصف مسلم في هذه القصيدة ممدوحه هذا بأنَّه ميمون الطائر، له نصيب من اسمه "منصور"، فقد تتابعت إليه القادة العظماء، مسلمين قياد الأمور إليه[10]: (من الكامل).

زَحَفَت بِهِ الأَيَّامُ فَانقادَت لَهُ بِزِمامِها نَخَواتُ كُلِّ مُقَوَّدِ
وَغَدَت بِهِ رِدفًا مَطالِعُ لَم تَزَل تَجري لِمَنصورٍ بِطَيرِ الأَسعَدِ

والمَطالِع جمعٌ، مفرده المطلِع وهو مكان الطُّلوع، يشير الشَّاعر، فيما يبدو، إلى اعتقادهم بالأنواء، فيذكر أنَّ تلك المطالع "مطالع النُّجوم" توافقه إلى كلِّ أمر تيمَّن إليه، واشتهى تحقيقه. كما يقولون في الدُّعاء: "جَرَى لَكَ طَيرُ السُّعودِ[11]".

ولا بأس في القول: إنَّ مسلمًا أبدع في مجالين آخرين من مجالات الفنِّ الشعريّ إلى جانب المديح، وبقيت منهما قصائد كثيرة تدلُّ على ذلك، هما الغزل والخمرة، ويمتزج القول عنده، كما عند غيره في هذين البابين، أو يكاد في أشعاره كلِّها، وقد كان للأمثال

1 أساس البلاغة: ج1، ص356.
2 العمدة، ج2، 261.
3 الميداني، مجمع الأمثال ، ج1، ص383.
4 انظر المصدر السابق، ج1، ص383.
5 المصدر نفسه، ج2، ص181.
6 انظر المصدر السابق، ج2، ص181.
7 شرح ديوان صريع الغواني، ص237
8 انظر لسان العرب، مادة: حصد.
9 انظر شرح ديوان صريع الغواني، ص237.
10 المصدر السابق، ص237.
11 العين: ج7، ص165.

والمعتقدات الشعبيَّة أثر في تشكيل الصُّورة في هذين المجالين كما في غيرهما. قال مسلم في مطلع غزليٍّ افتتح به قصيدة خمريَّة، فصوَّر تدلُّلَها وغنجها، ووصف تعلُّقه بها وتمسُّكه بحبال وعودها الواهية[1]: (من الطويل).

أُحِبُّ الَّتي صَدَّت وَقالَت لِتربِها ... دَعيهِ الثُّرَيَّا مِنهُ أَقرَبُ مِن وَصلي
أَماتَت وَأَحيَت مُهجَتي فَهيَ عِندَها ... مُعَلَّقَةٌ بَينَ المَواعيدِ وَالمطلِ

لقد عُلِّق قلبه هذه الجارية الَّتي أماتت نفسه بالمطل، كما أحيتها بالمواعيد، وزادته لوعة حين أبقت مهجته معلَّقة بين هاتين الحالتين، كأنَّ مواعيدها مواعيد عرقوب التي ضُرب بها المثل فقيل: "أَخلَفُ مِن عُرقُوبٍ[2]"، والشاعر في ذلك يسير على نهج شعراء الغزل قبله الَّذين أكثروا الوقوف على هذه الخصلة النِّسائيَّة، في وصف علاقاتهم بالمحبوبة. فقد أحبَّ الشاعر هذه الجارية على الرغم من صدودها، وإفراطها في الإعراض عنه عمدًا، حتَّى قالت لصاحبتها: إنَّه لن ينال وصالها، إلَّا أن ينال الثُّريَّا؛ مبالغة في الامتناع، وإمعانًا في صورة عزَّتها وتمنُّعها، فلن يصل إليها حتَّى يصل إلى ذاك الكوكب. وهو فيما يبدو، يحيل في هذا البيت إلى بعض الأقوال الشَّعبيَّة الَّتي تدلُّ على التَّناهي والإفراط في البعد، والَّتي أورد منها صاحب مجمع الأمثال قولهم[3]: "أَبْعَدُ مِنَ النَّجْمِ، وَمِنْ مَنَاطِ العَيُّوقِ، وَمِنْ بَيْضِ الأَنُوقِ، وَمِنَ الكَوَاكِب"، وتُضرب هذه الأقوال مثلًا للَّذي يطلب المحال الممتنع، وقد قالوا في السِّياق نفسه كذلك: "وهو منِّي مناط الثُّريَّا[4]"، أي شديدُ البُعدِ، وقد مزج مسلم شيئًا من هذه الأقوال، وأجراه على لسان محبوبته المعاندة تدلُّلًا، والمقيمة على المطل والصدِّ تكبُّرًا.

ويتجلَّى دخول الأمثال الشعبيَّة في الغزل في قول مسلم بن الوليد، مصوِّرًا معاناته وأهواله الَّتي لقيها في بحر الحبِّ[5]: (من الطويل).

طَفَوتُ عَلى بَحرِ الهَوى فَدَعَوتُكُم ... دُعاءَ غَريقٍ ما لَهُ مُتَعَوَّمُ
لِتَستَنقِذوني أَو تُغيثوا بِرَحمَةٍ ... فَلَم تَستَجيبوا لي وَلَم تَتَرَحَّمُوا

فقد كاد الحبُّ يغرقه في بحره، فراح ينادي أحبابه مستغيثًا بهم، لعلَّهم يعطفون عليه ويدركونه، غير أنَّ نداءه اليائس لم يكن إلَّا "دُعَاءَ غَرِيقٍ" لا يعرف العوم، ولم يُجرِّب الخوض في هذه اللُّجج، ويظهر جليًّا أنَّ الشاعر يحيل في هذا الشَّاهد إلى المثل الَّذي يقول: "أيأَسُ مِن غَرِيقٍ[6]"، وهو مثل يُضرب في المبالغة والتَّناهي في اليأس، غير أنَّه لم يُبق على إيجاز المثل وتكثيفه، بل أطنب في ذكر التَّفاصيل الَّتي كان يوحي بها هذا المثل، مؤكِّدًا يأسه بتصوير إعراض أحبَّته، وامتناعهم عن رحمته والاستجابة لندائه.

وقد يشبِّه مسلم السَّاقي بالظَّبي، ثمَّ يدخل في تصوير مجلس الشرب رصيده من القصص الشعبيّ، قال في إحدى خمرياته، مصوِّرًا السَّاقي، وهو يدور بالكأس على النَّدامى، كأنَّه الظبي رقَّة ونعومة[7]: (من الطويل).

وَدارَ بِها ظَبيٌ مِنَ الإِنسِ ناعِمٌ ... تَرودُ عُيونُ الشَّربِ جانِبَهُ شَزرَا
فَحَثَّ مطِيَّ الرَّاحِ حَتّى كَأَنَّما ... قَفا أَثَرَ العَنقاءِ أَو سايَرَ الخِضِرَا
إِذا ما أَدارَ الكَأسَ ثَنّى بِطَرفِهِ ... فَعاطاهُمُ خَمرًا وَعاطاهُمُ سِحرَا

ويلفت النظر أنَّه في صفة الساقي أراد أن يشير إلى السرعة التي وزَّع بها الكؤوس، كأنَّه تتبع أثر العنقاء، وفي هذا يلتقي مع ثقافته اللُّغويَّة والاجتماعيَّة موظِّفًا إيَّاها في إطار فنِّي لافت، وقد أورد الميداني صاحب مجمع الأمثال قصَّة العنقاء مفصَّلة في تفسير

1 شرح ديوان صريع الغواني، ص34.
2 جمهرة الأمثال، ج1، ص433.
3 مجمع الأمثال، ج1، ص115.
4 انظر جمهرة الأمثال، ج1، ص113، وانظر أساس البلاغة ج2، ص472.
5 شرح ديوان صريع الغواني، ص177.
6 جمهرة الأمثال، ج2، ص420، وانظر مجمع الأمثال، ج2، ص427.
7 شرح ديوان صريع الغواني، ص50.

المثل الذي يقول: "طَارَتْ بِهِمِ الْعَنْقَاءُ[1]"، ويؤخذ من هذه القصَّة أنَّها كانت معروفة عند العرب قبل الإسلام، وأنَّه يضرب بها المثل على اختفاء الشيء وذهابه إلى غير رجعة، أو بطلانه[2]، أمَّا مسلم فضربه مثلًا لسرعة الساقي في حثِّ كؤوس الرَّاح، كأنَّه اتَّبع أثر العنقاء، فهو يكدُّ ليدركها، عجلًا يعاطي النَّدامى سحرًا من طرفه، وخمرًا من يده.

أمَّا الخَضِرُ[3] فهو الذي له مكانة في الخيال الشعبي العربي، وقد وظَّفها مسلم في شعره، جاء في الأمثال: "أَسيَرُ مِنَ الخَضِرِ عَليهِ السَّلامُ[4]"، ويروي صاحب الأغاني في قصّة أسر أبي محجن خبر خروجه من أسره ومشاركته في الحرب، ممتطيًا فرس سعد بن أبي وقاص "البلقاء"، وفيه: "وقال قوم: إن كان الخَضِرُ يشهد الحروب فهو صاحب البلقاء[5]"، فكان يُعتقد كما يُفهم من هذا الخبر والمثل السابق أنَّ الخضر يتمتع بقوَّة خارقة وسرعة فائقة، وقد شبَّه بها مسلم خفَّة الساقي ولطافته وسرعته في توزيع كؤوس الخمرة وجلبِها، حتَّى كأنَّه سار مع الخضر وجاراه في السرعة، كما قال الشاعر.

ويشهد ما بقي في ديوان مسلم من أشعار في الهجاء على قلَّتها أنَّه أدخل النصوص الشعبيَّة في بناء صوره الهجائيَّة؛ إذ إنَّ غاية الشاعر في توظيف الأمثال في شعره غالبًا هي الإفادة من إيحائها وغناها الفكريّ. وأكثر الأبيات التي وصلت في ديوانه في الهجاء تدور حول صفتي الجود والبخل، يقول مسلم بن الوليد، يخاطب رجلًا رجا رفده، غير أنَّه لم يكن عند حسن ظنِّه[6]: (من الطويل).

وَإِنّي لَأَستَحْيِي السُؤالَ وَمَذهَبي ... عَريضٌ وَآبى الشُحَّ إِلّا عَلى عِرضي

وَما كانَ مِثلي يَعتَريكَ رَجاؤُهُ ... وَلَكِن أَساءَت شيمَةٌ مِن فَتًى مَحضِ

وَإِنّي وَإِشرافي عَلَيكَ بِهِمَّتي ... لَكَالمُبتَغي زُبدًا مِنَ الماءِ بِالمَخضِ

فقد اضطرَّت الحاجة الشاعر إلى سؤال هذا الرجل، على الرَّغم من أنَّه يستحيي من السؤال، ويرفض التفريط بعرضه، إلَّا أنَّه أخطأ التقدير، فطلب حاجته من غير أهلها، ولذلك راح يوبّخ نفسه، حين كان كَمَن يطلب الزبد بمخض الماء. والشاعر في ذلك يضرب المثل، ويحيل فيما يبدو إلى المثل القائل[7]: "كَدَمتَ غَيرَ مَكدَمٍ"، ويستقي من محتواه ما يدعم فكرته، وهو مثل أصله الاصطياد في غير مكان الصيد[8]، ويضرب هذا المثل للحاجة تُطلب في غير موضعها، أو من غير أهلها. وممَّا قالوا في معنى هذا المثل الذي ضربه مسلم في الشطر الأخير من الشاهد السابق ما رواه الجاحظ منسوبًا إلى بعض الأعراب: "كَمَخضِ الماءِ ليسَ لهُ إتَاء[9]"، وهو شطر بيت اختلف في نسبته يقول[10]: (من الوافر).

وبعضُ القَول ليسَ لهُ عناجٌ ... كَمَخض الماء ليسَ لهُ إتاءُ

ويبدو أنَّ مسلمًا أفاد من المادَّة التي يحتوي عليها الشطر الثاني. وكلّ شطر من هذا البيت يُضرب مثلًا، فالقول الذي لا عِناجَ له: هو القول الذي يُرسل على غير رويَّة، وقوله في الشطر الثاني: "لَيسَ لَهُ إِتَاءُ"، أي ليس له زبد[11].

1 مجمع الأمثال، ج1، ص429.

2 انظر الحيوان: ج7، ص121.

3 هو صاحب نبيّ الله موسى في قصّته المعروفة في سورة الكهف.

4 مجمع الأمثال، ج1، ص356.

5 الأغاني: ج19، ص6.

6 شرح ديوان صريع الغواني، ص286.

7 مجمع الأمثال، ج2، ص139.

8 انظر لسان العرب، مادة: كدم.

9 انظر الحيوان، ج7، ص158.

10 ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكّيت: ص319. وانظر الحيوان: ج7، ص158.

11 انظر لسان العرب، مادة: عنج، ومادة: أتي.

ويبدو أنَّ مسلمًا كان يمزج في مقطوعاته الهجائيَّة الهزل وخفَّة الرُّوح بالجدّ في ذكر الصِّفات المنفِّرة الَّتي يُلحقها بخصمه حقيقيًّا كان أو مُتخيَّلًا، محيلًا في أثناء ذلك إلى ما يناسب المقام من أقوال شعبيَّة تساعد في سيرورة الشعر وانتشاره، قال يهجو سعيد بن سلم[1]: (من المتقارب).

وَأَحبَبتُ مِن حُبِّها الباخِلِ ... نَ حَتّى وَمَقتُ ابنَ سَلمٍ سَعيدا
إِذا سيلَ عُرفًا كَسا وَجهَهُ ... ثِيابًا مِنَ اللُؤمِ حُمرًا وَسودا
يغارُ عَلى المالِ فِعلَ الجَوادِ ... وَتَأبى خَلائِقُهُ أَن يَجودا

وقد ألطف مسلم في الخروج خروجًا حسنًا من صفة البخل في المحبوبة، وهي صفة ليست غريبة في الغواني، ليتخلَّص إلى معنى البخل في المهجوِّ، زاعمًا أنَّه أحبَّ هذا البخيل لاشتراكه في هذه الصفة مع محبوبته، كما أنَّ في تلك الأبيات إحالة إلى بعض ما رسخ في الوعي الجمعيّ من حكم وأمثال قيلت في معاني الحثِّ على الجود والتَّنفير من البخل، نحو قولهم في ذمّ البخل: "لا يكسِبُ الحَمدَ فَتًى شَحيحٌ[2]"، فالثَّناء الحسن لا يكون إلَّا للجواد الكريم، فلا ينبغي أن يسعى له من كانت في طبيعته خصلة الشُّحّ. ومن ذلك قولهم في ذمّ مَن لا يقبل أن يكون عطاءٌ حتَّى من غيره لشدَّة بخله: "أبخلُ مِن الضَّنينِ بِمالِ غيرِهِ[3]"، فهو ليس بخيلًا بذات يده فحسب، بل هو ضنين بما في يد غيره، كأنَّه ذلك الرجل الذي هجاه مسلم في الشَّاهد السَّابق. ومن هذا الباب قولهم أيضًا: "الحُرُّ يُعطِي والعبدُ يَألَمُ قَلبُهُ[4]"، فالعبد لا يجود، ويشقُّ عليه أن يرى الجود من غيره، وهذه أبعد غايات البخل، ومن أمثالهم في هذا المعنى: "يمنعُ دَرَّهُ ودَرَّ غيرِهِ[5]"، فلا خيره يُرتجى ولا هو يرجو الخير من أحد.

وتتجلَّى خفَّة الروح في أشعار مسلم بن الوليد ومزج الهزل بالجدِّ في تصوير الطِّباع المستهجنة كالبخل وإخلاف المواعيد، في قوله في إحدى مقطوعاته يخاطب أحدهم[6]: (من الطويل).

لِسانُكَ أَحلى مِن جَنى النَحلِ مَوعِدًا ... وَكَفُّكَ بِالمَعروفِ أَضيَقُ مِن قُفلِ
تُمَنِّي الَّذي يَأتيكَ حَتَّى إِذا انتَهى ... إِلى أَجَلٍ ناوَلتَهُ طَرَفَ الحَبلِ

وممَّا لا ريب فيه أنَّ الوفاء بالوعد من الخلال الحميدة والخصال المجيدة الَّتي يقدِّرها أيُّ مجتمع، وهو من شيم النُّفوس الكريمة، وعلى العكس من ذلك خصلة الإخلاف أو النَّكث، وقد سبق الاستشهاد بمواعيد عرقوب الَّتي ضُرب بها المثل، فقيل: "أَخلَفُ مِن عُرقُوبٍ[7]". ولهذا كثرت الأقوال الشَّعبيَّة الَّتي تدور حول هذه الفكرة، وقد نقلت كتب الأدب كثيرًا من الحكم والأمثال في هذا الباب، نحو قول أعرابيّ: "وَعدُ الكَريمِ نَقدٌ، ووَعدُ اللَّئيمِ تسويفٌ[8]".

ويبدو أنَّ مسلمًا استوحى تفضيل لسان الشَّخص الَّذي خاطبه على جنى النَّحل من قولهم في التَّناهي والمبالغة في الصفاء: "أَصْفَى مِنْ جَنَى النَّحلِ[9]"، على أنَّ هذه الحلاوة وهذا الصَّفاء ليس إلَّا في الأقوال دون الأفعال. ويتبيَّن من هذه القطعة الحثُّ على إنجاز الوعد، وقد أوردت كتب الأمثال قولهم في طلب إنجاز الوعد: "أَنجزَ حُرٌّ مَا وَعدَ[10]"، وفي هذا القول أمر بطريق الإخبار، فظاهره

1 شرح ديوان صريع الغواني، ص270.
2 مجمع الأمثال، ج2، ص248.
3 جمهرة الأمثال، ج1، ص248.
4 المصدر السابق، ج1، ص359.
5 مجمع الأمثال، ج2، ص417.
6 شرح ديوان صريع الغواني، ص337.
7 جمهرة الأمثال، ج1، ص433.
8 عيون الأخبار: ج3، ص145.
9 مجمع الأمثال، ج1، ص412.
10 جمهرة الأمثال، ج1، ص30.

أسلوب خبريٌّ لكنَّ معناه إنشائيٌّ يفيد الأمر بالإنجاز. ويلوح في قطعة مسلم الإيحاء بوجوب اليأس من هذا الرجل، والعرب تقول لمن لا يريد قضاء الحاجة، أو لا يقدر على قضائها: "السَّراحُ مِنَ النَّجاحِ[1]"، أي ينبغي أن تؤيس صاحب الحاجة منها، إذا لم تقضها له. وتقول العرب لمن يعد ولا يفي: "بَرقٌ خُلَّب[2]"، فهو كالسراب يغرُّ من رآه ويخلف من رجاه، وواضح أنَّ هذه الأمثال وغيرها ترسَّبت في ذاكرة الشاعر، وتظاهرت على إنتاج هذه الأبيات الَّتي رغب الشَّاعر أن تجري مجرى الأمثال.

الخاتمة:

يتبيَّن ممَّا تقدَّم أنَّ النُّصوص الشَّعبيَّة لها إلى جانب مصادر المعاني الأخرى أثر مهمٌّ في بناء شعر مسلم بن الوليد، وإن لم يكن هذا الأثر كبيرًا، غير أنَّه لا يمكن إغفاله، وهي نصوص أوَّل ما يُطلب منها مغزاها أو بعدها الفكريُّ، وهو ما تبيَّن عند الشاعر الَّذي اهتمَّ بمغزى النَّصِّ الشَّعبيّ، ثمَّ جاء به على حاله أو محوَّرًا بما يلائم سياق أبياته، وبما يسهم في سيرورة شعره وانتشاره بين النَّاس، ويمكن القول إنَّه كان يدخل في علاقة مع النُّصوص الشَّعبيَّة؛ من أجل إغناء تجربته الشِّعريَّة بالاستفادة من القيم المطروحة فيها، وفي فنون القول كافَّة.

1 مجمع الأمثال، ج1، ص329.

2 جمهرة الأمثال، ج1، ص211.

المصادر والمراجع:

1. الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني. تحقيق عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، الهيئة المصرية العامّة للكتاب.
2. الأنصاري مسلم بن الوليد: شرح ديوان صريع الغواني. عُني بتحقيقه والتعليق عليه الدكتور سامي الدهان، دار المعارف، ط3 تا/ لا.
3. الجاحظ عمرو بن بحر: الحيوان. تحقيق عبد السَّلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط2، 1968.
4. الحطيئة، جرول بن أوس: ديوان الحطيئة برواية وشرح ابن السكّيت. تحقيق نعمان محمَّد أمين طه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1987.
5. ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمَّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل – بيروت، ط5، 1981.
6. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر: أساس البلاغة. تحقيق محمود محمَّد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1991.
7. ابن طباطبا أبو الحسن محمَّد بن أحمد بن إبراهيم بن طباطبا العلويُّ: عيار الشِّعر، تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع، مكتبة الخانجي، القاهرة.
8. عبيد بن الأبرص: ديوان عبيد بن الأبرص. شرح أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994.
9. العسكري أبو هلال: جمهرة الأمثال. تحقيق محمَّد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988.
10. الفراهيدي الخليل بن أحمد: العَين. تحقيق مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الهلال، ط/ لا، تا/ لا.
11. ابن قتيبة، عيون الأخبار. طبعة دار الكتب المصرية، ط/ لا، 1996.
12. ابن منظور، محمَّد بن مكرم: لسان العرب. تحقيق عبد الله علي الكبير، ومحمَّد أحمد حسب الله، وهاشم محمَّد الشاذلي، دار المعارف، القاهرة، ط/ لا، تا/ لا.
13. الميداني: مجمع الأمثال. حققه وفصَّله وضبط غرائبه وعلَّق حواشيه محمَّد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط/ لا، 2003.
14. اليوسي الحسن: زهر الأكم في الأمثال والحكم. تحقيق محمَّد حجي ومحمَّد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1981.